مجلة المجمع العلمي

مجلة فصلية انشئت سنة ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م - الجزء الرابع - المجلد الثالث والخمسون

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

القـــدس فـــي العهـــد البيزنطـــي

الدكتـــــور
جـــواد مطـــر الموســـــوي
كلية الاداب / قسم التاريخ
جامعة بغداد

الملخص :

احتلت مدينة القدس المرتبة الاولى في الاهميـــة بين المدن الفلسطينية ، فمنها نشر السيد المسيح (عليه السلام) رسالته ، وبين اهلها صلبه اليهود ، وفيها اعظم الرموز والمقدسات المسيحية في العالم ، ومما زاد في قدسية تلك المدينة واكسبها طابعا حضاريا مميزا اعتناق الامبراطورية قسطنطين (٣٠٦ -٣٣٧م) المسيحية واعترافه بها ديانة رسميـــة للامبراطورية البيزنطية ســـنة (٣١٣م) ، فكان من مظاهر عنايتـــه بتلك المدينة انـــه اعـــاد لهـــا اسمهـــا الكنعاني القديم (اورشليم) الذي يعني مدينة السلام مع احتفاظها باسمها (ايليا) الـــذي اطلقـــه عليها الامبراطور الروماني ايليوس هدريانوس (١١٧-١٣٨م) الذي يعني بيت الرب ، كما ابدى تساهلا مع اليهود ، اذ سمح لهم بدخولها مرة واحدة في السنة بعد ان منعوا من دخولها نهائيا في عهد الامبراطور هدريانوس .

وممن زار القدس لغرض التبرك (هيلانة) ام الامبراطور قسطنطين وذلك سنة (٣٢٦م) ، ويذكر انها عثرت على خشبة الصليب الحقيقية التي صلب عليها السيد المسيح (عليه السلام) فزينتها بالذهب والفضة ، واوجدت لذلك عيداً عرف بعيد الصليب ، ومع ان مكانة القدس قد تزعزت فـــي عهـــد الامبراطـــور

٣٦١-٣٦٣م) الذي ارتد عن المسيحية ورجع الى الوثنية الا انها استعادت تلك المكانة في عهد الاباطرة الذين جاءوا من بعده لاسيما الامبراطور جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) الذي اقام فيها ابنية وعمارات كثيرة منها (باب الذهب) ، وكذلك شهدت مدينة القدس استقرارا بعد عهد الامبراطورجستنيان استمر اكثر من مائتي سنة ، مما ساعد على نموها اقتصاديا واداريا وثقافيا ، وتراس الادارة فيها حاكم مدني يحمل لقب (قنصل) .

واستحدث البزنطيون منصب بطريركية القدس وهو من المناصب الدينية العالية ، وكانت النقود المستخدمة في القدس وفلسطين هي الدينار الذهبي البيزنطي من فئة دينار واحد ونصف الدينار ، واصبحت القدس مركزا لسكها ، على ان ذلك الاهتمام انتهى باستيلاء الملك الساساني كسرى الثاني (ابروبز) (٥٩٠-٦٢٨م) على فلسطين واحتلاله حاضرتها القدس بالتعاون مع اليهود بعد حصار دام عشرين يوما سنة (٦١٤م) وبعد استيلائهم عليها هدموا واحرقوا كنائسها ومنها كنيسة القيامة ، كما نقل الساسانيون الصليب الحقيقي الى عاصمتهم طيسفون ، وبعد احد عشر سنة تمكن الامبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م) من استعادتها سنة (٦٢٩م) لكنه لم يهنأ كثيرا ، فقد دخلت القدس الى الحظيرة العربية الاسلامية بعهد الخليفة (رضي الله عنه) سنة (١٥هـ /٦٣٦م) .

تولى عرش الامبراطورية الرومانية ، الامبراطور قسطنطين الملقب بالكبير(٣٠٦- ٣٣٧م) ، لتبدأ مرحلة حضارية جديدة ، ولا سيما بعد اعتناقه الديانة المسيحية واعترافه بها ديانة رسمية بعد اعلان (ميلان) سنة (٣١٣م) [١] وبناء عاصمة جديدة سميت على اسمه بـ (القسطنطينية)

سنة (٣٢٤م) [٢] ، في منطقة بيزنطة (بيزنطوم) Byzantium ، في نقطة التقاء قارة اوربا بالقارة الاسيوية عند مضيق البسفور ، وهو موقع مهم عسكريا واقتصادياً ، منذ ذلك التاريخ بدأ يظهر كيان سياسي ، اتحدت فيه مبادئ الرومان المسيحية وافكارهم مع الحضارة اليونانية الهلنستية الوثنية ، واطلق عليها (الامبراطورية الرومانية – الشرقية) وسماهم العرب المسلمون (الروم) وسميت فيما بعد(الامبراطوريةالبيزنطية) نسبة الى منطقة (بيزنطة) [٣].

دخلت القدس تحت السيطرة البيزنطية ، بصفتها مدينة من مدن فلسطين ، التي قسمت في عهد الامبراطور قسطنطين الى ثلاثة اقسام :

١- فلسطين الاولى (Palaestina Prima) وتشمل : اورشليم (القدس) ونيابولس (شكيم) وجوبا (Joppa) ويافا وغزة وعسقلان وغيرها ومركزها الرئيس مدينة قيسارية (قيصرية) .

٢- فلسطين الثانية (Palaestina Secunda) وتشمل : طبريه وقلعة الحصن وجَدَرة ومدينتها الرئيسة سكيثوبوليس (Scythoplis) أي بيسان (Bethshan) .

٣- فلسطين الثالثة (Palaestina Tertia) وتشمل : بلاد الانباط وبئر السبع وكانت البتراء مدينتها الرئيسة ، لكن عاصمتها كانت مدينة (خلاصة) [٤].

وتعد فلسطين الاولى اكثر مدناً وكثافة سكانية بالمقارنة بالاقسام الاخرى فكان من ضمنها: مدينة القدس وبيت لحم وحلحول وتقوع وسعير وبيت زكريا وبيت سورا وكفر جمال وبيرزيت والبيرة وجفنة وخربة الفريديس ولفتة وقولونيا وتبير وغيرها [٥] ، والراجح ان هذا التقسيم استمر حتى نهاية السيطرة البيزنطية .

ومن بين مدن فلسطين ، اعار الإمبراطور قسطنطين أهمية كبيرة لمدينة القدس ، واعتنى بها افضل اعتناء ،إذ أعاد لها اسمها الكنعاني القديم (اورسليم = يروسالم) [٦]، الذي يعني ارض او مدينة الملك اليبوسي سالم [٧]، او مدينة السلام او اله السلم[٨] ، لكن اسم (ايليا) بقي ملازما لها ، وهو القسم الاول من اسم (ايليا كابيتولينا) الذي اطلقه عليها الامبراطور الروماني ايليوس هدريانوس (١١٧-١٣٨م) الذي اهتم بها وأعاد بناءها [٩] ، (والاسم يعني بيت الاله) [١٠]، وبقي حتى عقد خليفة المسلمين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عهده مع اهلها سنة (١٥هـ/٦٣٦م) .

اصبحت القدس في عهد الامبراطور قسطنطين مركزاً مرموقاً نظراً لقدسيتها فمنها نشر السيد المسيح (عليه السلام) رسالته ، وبين اهلها صلبه اليهود ، وفيها اعظم الرموز والمقدسات المسيحية في العالم ، التي ظل العرب يرعونها بكل تسامح [١١]، ويذكر انه كان لا يحق لليهود دخول القدس منذ عهد الامبراطور هدريانوس ، الا ان الامبراطور قسطنطين تساهل في ذلك وسمح لهم بدخولها مرة واحدة في السنة [١٢].

وفي مدينة نيقية (Nicea) التابعة لاسيا الصغرى عقد اجتماع سنة (٣٢٣م) حضره جميع الاساقفة ، ومن ضمنهم (مكاريوس) بطريرك (أسقف) القدس ، وقد التقى به الامبراطور ، وسمع شكواه عن الحالة السيئة لمدينة القدس كما حاوره حول الشؤون الدينية المسيحية ، واقامة كنيسة لائقة فيها [١٣]، وعلى أثر ذلك زارت أم الامبراطور هيلانة (هلينيا) القدس سنة (٣٢٦م) لغرض التبرك – فهي مسيحية تقية – بزيارة الاماكن المقدسة ، ولحث البطريرك (مكاريوس) للإسراع في أقامة كنيسة واكمال العمل فيها [١٤].

كما انتشرت الاخبار ان ام الامبراطور هيلانة ، قد عثرت على الصليب الحقيقي في القدس الى جانب بعض الاشارات والرموز الاصلية المهمة في ارض كنيسة القيامة [١٥] ، كما تحققت من بعض المواقع المقدسة ، ومنها المكان الذي صلب فيه السيد المسيح (عليه السلام) وأنشأت عليه كنيسة فخمة بدأ العمل فيها سنة ٣٣٥م ، وهي كنيسة القيامة التي تعد من أقدس الكنائس في العالم ، إذ يعتقدون ان قبر السيد المسيح (عليه السلام) فيها فاصبحت مكاناً مقدساً عند كل المذاهب والطوائف المسيحية ، فلكل طائفة مكان خاص بها للعبادة ، لذلك تعد عدة كنائس في كنيسة واحدة ، وقد حاول اليهود حرقها اكثر من مرة[١٦] .

وقد ذكرت المصادر العربية الاسلامية [١٧]، زيارة هيلانة إذ خرجت من ارض بلاد الشام وسارت الى بيت المقدس ، وطلبت الخشبة التي صلب عليها السيد المسيح (عليه السلام) فلما صارت اليها حلتها بالذهب والفضة ، وأوجدت لذلك عيد الصليب ، وبنيت كنيسة قمامة (القيامة) كما قامت هيلانة ببناء المكان المقابل لها ، وقد وصف الرحلة (ناصر خسرو) في كتابه (سفر نامة) كنيسة القيامة عندما زار القدس سنة (٤٣٩هـ/ ١٠٤٧م) وقال : بأنها مكان عظيم عند النصارى ويحج اليها كل سنة الكثير من بلاد الروم ، وهي فسيحة تسع ثمانية الاف رجل ، عظيمة الزخرفة الرخامية الملونة والنقوش والصور ، وهي مزدانة من الداخل بالديباج الرومي والصور ، وزينت بطلاء من ذهب وفيها صورة عيسى (عليه السلام) راكباً حماراً ، وصور الانبياء الاخرين مثل : ابراهيم واسحق ويعقوب وابنائهم (عليهم السلام) وهذه الصور مطلية بزيت السندروس ، وقد غطي سطح كل صورة بلوح من الزجاج الشفاف ، حتى لا يصل لها الغبار ، وينظف الخدم هذا الزجاج كل يوم ، وهناك مواضع أخرى

كلها مزينة ولو وصفتها لطالت كتابتي ، وفي هذه الكنيسة لوحة مقسمة الى قسمين ، فنصف يصف الجنة واهلها ، ونصف يصف النار واهلها ، وليس لهذه الكنيسة نظير في أية جهة من العالم ، ويقيم بها كثير من القسيسين والرهبان ، ويقرأون الانجيل ويصلون ويشتغلون بالعبادة ليل ونهار [١٨].

كما بنى الإمبراطور قسطنطين وأمه هيلانة كنيسة (ايليون) على جبل الزيتون ، وقد اختارت هيلانة هذا الموقع لانه يوجد فيه الكهف الذي اماط فيه السيد المسيح اللثام الى حواريه عن الكثير من المعجزات وقد اكتشفت هذه الكنيسة سنة (١٩١٠م) وهي تقع بالقرب من دير (بطرس ناستور) الى الجنوب من كنيسة الصعود [١٩]. كما بني امرت هيلانة ببنائها ، وبناء كنائس اخرى في بيت لحم والناصرة منها : كنيسة المهد والبشارة [٢٠]، وبعد بناء هذه الكنائس ازدادت أهمية القدس الدينية عند المسيحيين في كل انحاء العالم ، واخذ الحجيج منذ سنة (٣٣٣م) يزورونها من كل حدب وصوب [٢١]، أحياء لحج السيد المسيح (عليه السلام) في صباه [٢٢]، ونجد في فلسطين وحدها أرسلت تسعة عشر اسقفاً للاشتراك في مجمع نيقية سنة (٣٢٥م) كما جاء في مخطوطة سريانية [٢٣]، وفي سنة (٣٣٥م) عقد مؤتمر ديني في القدس [٢٤]، أيد فيه المجتمعون مذهب اريوس ، وبذلك اصبح مذهب الطبيعة الواحدة مظهراً فكرياً لثورة نصارى العرب في فلسطين ، تهدف الى التخلص من الحكم البيزنطي [٢٥].

كما اصبحت القدس في نهاية القرن الرابع الميلادي مركزاً للكثير من الزهاد الذين انخرطوا في سلك الرهبنة من جميع انحاء الامبراطورية البيزنطية حيث تركوا كل شيء وراءهم وعاشوا حياة تأمل وعزلة [٢٦] ، وكانوا يستقرون كما يقول الرحالة ناصر خسرو في كتابه (سفر نامة) في سهل كبير مستو

يسمى (الساهرة) يقع في الجهات الشرقية من المدينة ، ويعتقدون انه سيكون ساحة القيامة والحشر ، لهذا يحضر اليه خلق كثيرون من اطراف العالم ويقيمون به حتى يموتوا فاذا جاء وعد الله كانوا بارض الميعاد [٢٧]. وبذلك اصبحت مدينة القدس مدينة مسيحية خالصة .

وبعد وفاة الامبراطور قسطنطين ، ومن ثم تولي العرش البيزنطي الامبراطور جوليان (Julian) سنة (٣٦١م) وقد مثل هذا الامبراطور خطراً على المسيحية ومركزها الديني ومنها القدس ، فقد ارتد عن المسيحية ورجع الى الوثنية واصدر مرسوماً يقضي بفتح المعابد الوثنية ، وهذا العمل انعش امال الوثنيين واليهود في السيطرة على القدس ، ولكن هذه الآمال تبددت فقد توفي جوليان نتيجة أصابته بسهم في ٢٦ حزيران سنة (٣٦٣م) [٢٨]، والذي جاء بعده جدد القوانين القديمة ، ومنع اليهود من دخول القدس الذي تساهل فيه جوليان [٢٩].

وفي عهد الامبراطور جستنيان (٥٢٧- ٥٦٥م) اقيمت أبنية وعمارات كثيرة في فلسطين منها (باب الذهب في القدس) ، وهو ما زال يسمى بهذا الاسم حتى اليوم [٣٠]، وكنيسة (ماري نوفا) وهي لا تبعد عن حائط المبكى ، وقد بنيت سنة (٥٤١م) [٣١]، وعندما سيطر القائد العسكري للامبراطور وهو (بنيزاريوس) على احد المعابد اليهودية قرب روما ، امر الامبراطور جستنيان بنقل كنوز هذا المعبد الى القدس [٣٢]، وقد شهدت القدس بعد ذلك ، استقراراً دام اكثر من مئتي سنة ، مما ساعد على النمو الاقتصادي والاداري والثقافي وقد ترأس الادارة في فلسطين الاولى خلال العهد البيزنطي ، حاكم مدني يحمل لقب (قنصل) وهو المسؤول عن متابعة الشؤون الادارية

والماليـــة والقضائية [٣٣]، ويكون مقره العاصمة قيسارية ، واشهر من تولى هذه المهمة هو (جوستين) الذي قتل في اثناء تمرد السامرة سنة (٥٢٩م) [٣٤]، اما قيادة الجيش في الولايات الفلسطينية فعليه قائد عسكري يلقب بـــ (الدوق) كمـــا انه يشرف على المعسكرات الداخلية في مدن فلسطين مثل القـــدس والخليـــل ، وعلى الحصون الحدودية ويساعد (الدوق) رؤساء القبائل العربية ، مثل ذلك : مشاركة الغساسنة بقيادة الحارث بن جبلة الغساني في الجيش البيزنطـــي الـــذي يقوده الدوق ثيودور ، لقمع تمرد السامرة [٣٥]، ويكون رئيس القبيلة العربية قائد فرقة في الجيش البيزنطي ويحمل القاباً رسمية ادارية وعسكرية مثل (فيلارخ) او بطريق [٣٦]، ومن اشهر من حمل هـــذا اللقب امرؤ القيس الكندي ســـنة (٤٧٣م) والحـــارث الكنـــدي ســـنة (٥٠٣م) وابنـــه قـــيس ، الـــذي كـــان (فيلارخ) على فلسطين الاولى التي من ضمنها القدس حتى حل مكانه الاسود الكندي ثم طرده الغساسنة سنة (٥٤٤م) الذين سيطروا على كل ولايات فلسطين [٣٧]، وبضمنها القبائل العربية القريبة من القدس .

كما استحدث البيزنطيون منصب بطريركيـــة القـــدس ، وكـــان اســـقف قيسارية يتولى رئاسة اساقفة فلسطين بولاياتها الثلاث حتى سنة (٤٥١م) إذ حل محله بطريرك القدس ، وفي سنة (٥١٨م) اصـــبح عـــدد الاســـاقفة التـــابعين لبطريرك القدس (٣٣) اسقفا ، و(٤٩) اسقف في سنة (٥٣٦م) ، وكان للقبائل العربية المنتشرة في ضواحي القدس اسقف سنة (٤٢٧م) وهـــو فيلارخ اســـمه (الاسبيت) وكان الاسقف مارس العربي(ت٤٦٨م) ابن اخت (الاسبيت) قـــد تتلمذ على يديه عدد من الرهبان العرب ومن بينهم الياس العربي الذي تـــدرج

في السلك الكهنوتي حتى صار بطريركاً للقدس سنة (٤٩٤م) واستمر حتى سنة (٥١٨م) حيث طرد منه بتهمة اعتناقه المذهب الاريوسي [٣٨].

وفرض البيزنطيون عدداً من الضرائب على المواطنين ، منها ضريبة الارض (Tribun Soli) وكانت تؤخذ عيناً ، ومنذ القرن الرابع الميلادي صارت تؤخذ نقداً بعد أن قسمت اراضي الولايات الى وحدات ضريبية تسمى الواحدة منها يوجوم (Iugum)[٣٩]، واصبحت هذه الضريبة باهضة في عهد الامبراطور جستنيان وكذلك في عهد الامبراطور هرقل [٤٠]،كما فرضت ضريبة الرأس (Tributum Capitis) على كل مواطن من سنة١٢- ٦٥ سنة وبعد نهاية القرن الرابع الميلادي أعفى منها سكان المدن وانحصرت في الفلاحين [٤١].

وكان النقد المستخدم في فلسطين والقدس هو الاوريوس (Aurues) الذي سكه الامبراطور اوغسطين قيصر (ت٤٤ ق.م) وفي عهد الامبراطور قسطنطين سك نقداً جديداً عرف باسم سوليدوس (Solidus) او بيزنت (Bezant) يزن ٤,٥٥ غرام ما من الذهب [٤٢]، ثم اصبحت القدس مركزاً لسك الدينار الذهبي البيزنطي من فئة دينار واحد ونصف الدينار وثلث الدينار [٤٣].

وكان الرومان والبيزنطيون اذا استولوا على منطقة يسرعون الى شق الطرق فيها ، فيخططها المهندسون ، ويقوم بتعبيدها فرق من الجند فيمدونا ويرصفون فيها الحجارة رصفاً محكماً فتبقى صالحة لمدة طويلة ، على الرغم من تأثيرات المناخ ، وضغط العجلات ، وكانت على جانبيه مسلك للسابلة (رصيف) يرتفع قليلاً عنها ، ومن اشهر الطرق التي أنشأها البيزنطيون هو

طريق القدس – الاسكندرية والرحلة فيه كانت تستغرق اسبوعين وطريق القدس – نابلس [٤٤].

كما انه أنشأ عدداً كبيراً من الكنائس في القدس وحولها جعل منها مركزاً فنياً مهماً ، فقد زينت هذه الكنائس بالموزائيك الفاخر والصور والفسيفساء ، وقد عمل من شكل هذه الكنائس مصغرات فنية بديعة ، يشتريها الحجاج [٤٥]، وكان في قبة كنيسة القيامة على سبيل المثال فسيفساء موزائيكية جميلة تمثل الامبراطور قسطنطين وامه هيلانة وهما يمسكان الصليب ، وقد استخدم الاباطرة البيزنطيون في بناء هذه الكنائس فنانين من يوناني الشرق والسوريين وغيرهم [٤٦].

ولم تستمر الاوضاع في القدس على استقرارها ، ففي عام (٦١٤م) قام كسرى الثاني (ابرويز) (٥٩٠ – ٦٣٨م) ملك الفرس الساسانيين بالسيطرة على فلسطين واحتلال حاضرتها القدس بعد حصار دام عشريز يوماً ، استطاع فيه القائد الفارسي (شاه براز) ان يقتل تسعين الف رجل [٤٧]، وقد عاونهم اليهود كالعادة في السيطرة والقتل بعد ان انضم خمسة وعشرون الف يهودي الى جانب الجيوش الفارسية [٤٨]، وقام اليهود بمذابح مروعة قتل فيها عدد كبير من المسيحيين ، كما اعادوا انتشارهم في القدس والخليل ، واشتروا الاسرى المسيحيين بأثمان بخسة وقتلوهم جميعاً ، وبتحريض من اليهود قام الفرس بتهديم الكنائس واحراقها ومنها : كنيسة القيامة ، كما اخذ الفرس الصليب الحقيقي ونقلوه الى عاصمتهم طيسفون (المدائن) الذي له قدسية عظيمة عند المسيحيين لانهم يعتقدون ان السيد المسيح (عليه السلام) قد صلب عليه [٤٩]، كما اسروا

اسقف القدس وهو (زكريا) وارسلوه الى بلدهم ، واستمر نهب القدس بمساعدة اليهود وقد فرحوا بذلك لشيء في قلوبهم ولانهم احسوا بعودة المدينة اليهم [٥٠].

ويبدو ان تصادما قد حدث بين الفرس واليهود ، بسبب النهب والقتل ، لذلك قام الفرس بنفي جميع وجهاء اليهود الى ايران [٥١]، لكن بعد سنوات عادت القدس من جديد تحت الحكم البيزنطي ، بعد ان تغلب الامبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) عام (٦٢٩م) على الفرس وطردهم من القدس وبلاد الشام ، واعاد الصليب وفك اسر البطريرك زكريا والاسرى الاخرين [٥٢]، واعيد بناء الكنائس مرة اخرى ، وترميم ما بقي منها مثل كنيسة القيامة [٥٣]، وبعد ان تأكد الامبراطور هرقل من تعاون اليهود مع الفرس وغدرهم للمسيحيين ، امر بملاحقتهم وقتل من ظفر به منم ، فغادروا اكثرهم فلسطين ، ومنع من بقي منهم في فلسطين من دخول القدس او الاقتراب منها [٥٤]، وبذلك لم يعد هناك أي اثر لهم في القدس .

وبعد بزوغ الاسلام عززت القدس عند العرب المسلمين ، ولا سيما بعد الاسراء والمعراج [٥٥]، واتخذها قبلة اولى للمسلمين حتى السنة الثانية للهجرة [٥٦]، كما وصفت في القرآن الكريم [٥٧]، بانها مباركة وجعلها بمثابة مكة المكرمة والمدينة المنورة ، كما اعار الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) اهمية كبيرة لمدينة القدس ، فقد رويت عنه أحاديث عديدة تشيد بها وبفضلها في مختلف النواحي [٥٨]، وفي سنة (١٥ هـ/٦٣٦م) دخلت القدس في ضمن حضيرة الدولة العربية الاسلامية بعهد شريف عهد به خليفة المسلمين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لاهلها [٥٩].

ومن هذا نستنتج : بعد تولي قسطنطين العرش في بيزنطة ، دخلت القدس مرحلة حضارية مهمة ، فاصبحت مدينة من مدن فلسطين الاولى بحسب التقسيم الاداري الجديد الذي اوجده البيزنطيون ، وأعيد لها اسمها الكنعاني القديم (اورسليم) الا ان اسم (ايليا) الذي اطلقه عليها الامبراطور هدريانوس ، بقي ملازماً لها ، الذي يعني (بيت الرب) .

أبدى الامبراطور قسطنطين بعض التسامح اتجاه اليهود فسمح لهم بدخول القدس مرة واحدة في السنة ، بعد ان منعوا من دخولها نهائياً ، كما قامت ام الامبراطور هيلانة بزيارة القدس والتحقق من بعض الرموز والاشارات الدينية المهمة ، وبناء عدد من الكنائس منها كنيسة القيامة ، وعلى اثر ذلك اخذ الحجيج يزورونها من كل حدب وصوب منذ سنة (٣٣٣م) إحياء لحج السيد المسيح (عليه السلام) في صباه كما اصبحت في القرن الرابع الميلادي مركزاً لكثيرمن الزهاد الذين انخرطوا في سلك الرهبنة من جميع انحاء الامبراطورية .

وقد شهدت القدس استقراراً دام اكثر من مئتي سنة ساعد على نموها اقتصادياً وادارياً وثقافياً ، حيث كان يترأس الادارة في فلسطين الاولى (قنصل) هو الحاكم المدني والمسؤول عن متابعة الشؤون الادارية والمالية والقضائية ، وكان قائد الجيش البيزنطي يلقب بـ (دوق) يساعده رؤساء القبائل العربية كما استحدث البيزنطيون منصب بطريركية القدس وهو منصب ديني عال .

كما فرض البيزنطيون عدداً من الضرائب على السكان منها ضريبة الرأس والارض ، واهتموا بانشاء الطرق المعبدة ومنه طريق القدس – الاسكندرية ، والرحلة فيه تستغرق اسبوعين ، وكذلك اصبحت القدس مركزاً فنياً مهماً ، لكثرة الكنائس فيها التي زينت بالموزائيل والفسيفساء .

وكل هذا انتهى بسيطرة الفرس على القدس سنة (٦١٤م) بالتعاون مع اليهود فقاموا بالقتل والنهب والسلب ، ولم يستمر ذلك طويلاً ، اذ استطاع هرقل اعادتها الى الحكم البيزنطي ، ويبدو ان هرقل لم يهنأ كثيراً ، فقد دخلت القدس الى الحظيرة العربية الاسلامية بعهد من الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) سنة (١٥هـ/٦٣٦م) .

الهوامش

١) عقد اول مجمع كنسي شمل أساقفة الامبراطورية ، واجتمعوا في مدينة (نيقية) التابعة لمنطقة (بيثينيا) Bithynia في اسيا الصغرى سنة (٣٢٥م) .

٢) انتهى العمل بها وافتتحت في الحادي عشر من شهر أيار سنة ٣٣٠م.

٣) عن الامبراطورية البيزنطية ينظر : الحديثي ، قحطان والحيدري ، صلاح ، دراسات في التاريخ الساساني والبيزنطي ، (البصرة : جامعة البصرة ، ١٩٨٦م) .

٤) الدباغ ، مصطفى مراد ، بلادنا فلسطين ، (القسم الاول) ، (بيروت : منشورات الطليعة ، ١٩٦٥م) ، ج١، ص٦٩٢ .

٥) ابو الرب ، هاني حسين ، فلسطين في صدر الاسلام ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، (بغداد : جامعة بغداد – كلية الاداب ، ١٩٩٨م) ، ص٣٨ .

٦) شراب ، محمد محمد حسن ، بيت المقدس والمسجد الاقصى ، دراسة تاريخية موثقة ، (دمشق : دار القلم و بيروت : الدار الشامية ، ١٩٩٤م) ، ص٦٦ .

٧) الاعظمي ، عواد مجيد ، تاريخ مدينة القدس (٣٠٠ ق.م- ١٠٩٩م) ، (بغداد : دار الحرية للطباعة ، ١٩٧٢م) ، ص٨٠ .

٨) حتي ، فيليب ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ترجمة : جورج حداد وعبد المنعم رافق ، (بيروت : دار الثقافة ، ١٩٥٨م) ، ج١ ، ص١٧٣ .

٩) فوده ، عز الدين ، قضية القدس ، (القاهرة : دار الكاتب العربي ، المكتبة الثقافية (١٨٠) ، ١٩٦٧م) ، ص٢٥ .

١٠) محمود ، معين احمد ، تاريخ مدينة القدس ، (بيروت : دار الاندلس ، ١٩٧٩م) ، ص٢٤ .

١١) الاعظمي ، تاريخ مدينة القدس ، ص٦٦ .

١٢) شراب ، بيت المقدس ، ص٦٦ .

١٣) الخليلي ، جعفر ، موسوعة العتبات المقدسة ، قسم القدس (بغداد : دار التعارف ، ١٩٧١م) ، ج١، ص١٨٨ .

١٤) رستم ، اسد ، الروم في سياستهم وحضارتهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ، (بيروت : ١٩٥٥م) ، ص٦٠ .

١٥) الاحمد ، سامي سعيد ، تاريخ فلسطين قديم ، (بغداد : مركز الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٩م) ، ص٣٩٦ .

١٦) وجيه ، ابو ذكرى ، القدس عربية عبر القرون ، (القاهرة : دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، لا.ت) ، ص١١، ٥٩ .

١٧) المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين بن علي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، (بيروت : ١٩٦٥م) ، ج١ ، ص٣٥٠ ؛ الاصفهاني ، عماد الكاتب ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، تحقيق : محمد محمود صبح ، (القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥م) ، ص١١٨؛ الحنبلي ، مجير الدين ، الانس الجليل في تاريخ القدس والخليل ، (النجف : ١٩٦٨م) ،ج١ ،ص١٧٠ .

١٨) نقلاً عن : الخليلي ، موسوعة العتبات المقدسة ، ج١، ص٢٢٥-٢٢٦ .

١٩) جابر ، فايز فهد ، القدس ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، (عمان : دار الجليل ، ١٩٨٥م) ، ص٣٧ .

٢٠) كتن ، هنري ، القدس الشريف ، ترجمة : نور الدين كتانة ، (عمان : مكتبة الاقصى ، ١٩٨٩م) ، ص٤٨ .

٢١) جابر ، القدس ، ص٣٦ .

٢٢) انجيل لوقا ، الاصحاح الثاني ، العدد ٤١- ٥٠ .

٢٣) نقلاً عن : حتي ، تاريخ سوريا ، ج١ ، ص٤٣ .

٢٤) الاحمد ، سامي سعيد ، نظرة في تاريخ فلسطين خلال الاحتلال البيزنطي (٣٢٤- ٦٥٣م) ، مجلة (سومر) ، مج ٣٨ (بغداد : ١٩٨٢م) ، ص١٣٤ .

٢٥) ابو الرب ، فلسطين في صدر الاسلام ، ص٥٣ .

٢٦) الخليلي ، موسوعة العتبات المقدسة ، ج١، ص٢٢ ؛ الاحمد ، تاريخ فلسطين القديم ، ص٣٩٧ .

٢٧) نقلاً عن : الخليلي ، موسوعة العتبات المقدسة ، ج١، ص٢١٠ .

٢٨) الخليلي ، موسوعة العتبات المقدسة ، ج١، ص١٨٨ .

٢٩) الاحمد ، تاريخ فلسطين القديم ، ص٣٩٩ .

٣٠) الخليلي ، موسوعة العتبات المقدسة ، ج١، ص١٨٩ .

٣١) الدباغ ، بلاد فلسطين ، ص٤٩٨ .

٣٢) الاحمد ، تاريخ فلسطين القديم ، ص٢٠٠ .

٣٣) عثمان ، فتحي ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، (القاهرة : دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٦م) ، ج١ ، ص٨٨ .

٣٤) الاحمد ، نظرة في تاريخ فلسطين ، ص١٣٥ .

٣٥) بيغوليفسكايا ، العرب على حدود بيزنطة وايران ، ترجمة : صلاح الدين هاشم ، (الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ، ١٩٨٥م) ، ص٢٧٣ .

٣٦) نولدكه ، ثيودور ، امراء غسان من ال جفنة ، ترجمة : بندلي جوزي وقسطنطين زريق ، (بيروت : ١٩٣٣م) ، ص٦ .

٣٧) بيغوليفسكايا ، العرب على حدود بيزنطة وايران ، ص٧٣ ، ١٧٧ ٢٠٦ ، ٢٣٢ .

٣٨) الاحمد ، نظرة في تاريخ فلسطين ، ص١٣٥ ؛ ابو الرب ، فلسطين في صدر الاسلام ، ص٤٧ .

٣٩) بينز ، نورمان ، الامبراطورية البيزنطية وحضارتها وعلاقتها بالاسلام ، ترجمة : حسين مؤنس ومحمد زايد ، (القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦١م) ، ص١٢٣.

٤٠) ارشيبالد ، القوى البحرية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة : احمد عيسى ، (القاهرة : مكتبة النهضة ، ١٩٦٠م) ، ص٣٦ .

٤١) دينت ، دانيال ، الجزية والاسلام ، تحقيق : فوزي فهيم جاد الله ، (بيروت : مكتبة الحياة ، ١٩٦٠م) ، ص٩٩ .

٤٢) ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة : محمد بدران ، (القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٤م) ، مج٤ ، ص٢٤٢ .

٤٣) ابو الرب ، فلسطين في صدر الاسلام ، ص٤٤ .

٤٤) الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ص٦٧٩ .

٤٥) الاحمد ، تاريخ فلسطين القديم ، ص٣٩٦ .

٤٦) المصدر نفسه ، ص٣٩٧ .

٤٧) المصدر نفسه ، ص٤١١ .

٤٨) شراب ، بيت المقدس ، ص٦٧ ؛ جابر ، القدس ، ص٣٧ .

٤٩) الاحمد ، تاريخ فلسطين القديم ، ص٤١٠ ؛ الخليلي ، موسوعة العتبات المقدسة ، ج١، ص٢٢ .

٥٠) جابر ، القدس ، ص٣٨ .

٥١) الاحمد ، تاريخ فلسطين القديم ، ص٤١٠ .

٥٢) جابر ، القدس ، ص٣٨ .

٥٣) كما قام المسلمون بترميمها سنة (٨١٧م) في عهد الخليفة العباسي المأمون (جابر ، القدس ، ص٣٨) .

٥٤) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، العبر في ديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاشرهم من ذوي السلطان الاكبر ، (بيروت : مؤسسة الاعلمي ، ١٩٧٧م) ، ج٢ ، ص٢٢١ .

٥٥) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص٢٩٤ .

٥٦) ابو هلال العسكري ، الحسن بن عبد الله بن سهل، الاوائل ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٧م) ، ص١٥٦ .

٥٧) سورة الاسراء ، اية ١٠ .

٥٨) ينظر : الحنبلي ، الانس الجليل ، ج١ ، ص٢٣٠ – ٢٣١ .

٥٩) المصدر نفسه ، ج١، ص٢٥٥ .

الملخص :

احتلت مدينة القدس المرتبة الاولى في الاهميـــة بين المدن الفلسطينية ، فمنها نشر السيد المسيح (عليه السلام) رسالته ، وبين اهلها صلبه اليهود ، وفيها اعظم الرموز والمقدسات المسيحية في العالم ، ومما زاد في قدسية تلك المدينة واكسبها طابعا حضاريا مميزا اعتناق الامبراطورية قسطنطين (٣٠٦ -٣٣٧م) المسيحية واعترافه بها ديانة رسميـــة للامبراطورية البيزنطية ســنة (٣١٣م) ، فكان من مظاهر عنايتـــه بتلك المدينة انـــه اعـــاد لهـــا اسمهـــا الكنعاني القديم (اورشليم) الذي يعني مدينة السلام مع احتفاظها باسمها (ايليا) الـــذي اطلقـــه عليها الامبراطور الروماني ايليوس هدريانوس (١١٧-١٣٨م) الذي يعني بيت الرب ، كما ابدى تساهلا مع اليهود ، اذ سمح لهم بدخولها مرة واحدة في السنة بعد ان منعوا من دخولها نهائيا في عهد الامبراطور هدريانوس .

وممن زار القدس لغرض التبرك (هيلانة) ام الامبراطور قسطنطين وذلك سنة (٣٢٦م) ، ويذكر انها عثرت على خشبة الصليب الحقيقية التي صلب عليها السيد المسيح (عليه السلام) فزينتها بالذهب والفضة ، واوجدت لذلك عيداً عرف بعيد الصليب ، ومع ان مكانة القدس قد تزعزت في عهد الامبراطور جولـــيان (٣٦١-٣٦٣م) الذي ارتد عن المسيحية ورجع الى الوثنية الا انها استعادت تلك المكانة في عهد الاباطرة الذين جاءوا من بعده لاسيما الامبراطـــور جســـتنيان (٥٢٧-٥٦٥م) الذي اقام فيها ابنية وعمارات كثيرة منها (باب الذهب) ، وكذلك شهدت مدينة القدس استقرارا بعد عهد الامبراطورجستنيان استمر اكثـــر مـــن مائتي سنة ، مما ساعد على نموها اقتصاديا واداريا وثقافيـــا ، وتـــراس الادارة فيها حاكم مدني يحمل لقب (قنصل) .

واستحدث البزنطيون منصب بطريركية القدس وهو من المناصب الدينية العالية ، وكانت النقود المستخدمة في القدس وفلسطين هي الدينار الذهبي البيزنطي من فئة دينار واحد ونصف الدينار ، واصبحت القدس مركزا لسكها ، على ان ذلك الاهتمام انتهى باستيلاء الملك الساساني كسرى الثاني (ابرويز) (٥٩٠-٦٢٨م) على فلسطين واحتلاله حاضرتها القدس بالتعاون مع اليهود بعد حصار دام عشرين يوما سنة (٦١٤م) وبعد استيلائهم عليها هدموا واحرقوا كنائسها ومنها كنيسة القيامة ، كما نقل الساسانيون الصليب الحقيقي الى عاصمتهم طيسفون ، وبعد احد عشر سنة تمكن الامبراطور هرقل (٦٠-٦٤١م) من استعادتها سنة (٦٢٩م) لكنه لم يهنأ كثيرا فقد دخلت القدس الى الحظيرة العربية الاسلامية بعهد الخليفة (رضي الله عنه) سنة (١٥هـ /٦٣٦م) .